

مالك حدّاد بين الاستعمار واللغة

أ. فاطمة الزهراء فنازي

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

الملخص:

Résumé

Essai La littérature inévitable 1945 de naissance écrit en début française de cette littérature algérienne de date est devenue un après un grand humaine; Il était donné la priorité à la question nationale qui a été et est une partie intégrante de son être partie, coaxial par la littérature produite par ceux ère historique et le cas, est la question de la révolution éditoriale qui était le point de départ pour la plupart du temps des écrivains ; il a traversé à travers laquelle l'homme algérien et ses problèmes quotidiens de la pauvreté, le chômage et le désir de se libérer de la réalité de la vie, parmi ces écrivains, "Malek Haddad," qui a prouvé au cours de l'adhérence de cette littérature réalité algérienne grande révolution, et a été en mesure de surmonter la double peine de la tragédie et de vivre jusqu'à l'équitation deux chevaux, soit entre deux civilisations différentes, et les préoccupations et d'exprimer un nationaliste et humaine nationale et ce qui l'a amené à poursuivre un style littéraire est très difficile dans son écriture. Il est l'auteur ya voir? Et comment il a réussi à étoile montante dans la scène artistique algérienne et internationale? Désespoir technique qui dépasse ceux de l'ère révolutionnaire

تعدّ سنة 1945 الولادة الحتمية للأدب المكتوب باللغة الفرنسية، فبداية بهذا التاريخ أصبح الأدب الجزائري ذا بعد إنسانيّ عظيم، حيث كان يعطي الأولوية للمسألة الوطنية التي كانت ومازالت جزء لا يتجزأ من كيانه، والقضية المحورية لكلّ الكتابات التي أنتجت تلك الحقبة التاريخية، هي قضية الثورة التحريرية التي كانت منطلقاً لمعظم الكتاب آنذاك، فقد عبّروا من خلالها عن معاناة الإنسان الجزائري ومشاكله اليومية من فقر وبطالة ورغبة في الانعتاق من الواقع المعيش، من بين هؤلاء الكتاب "مالك حدّاد" الذي أثبت مدى التصاق هذا الأدب بالواقع الجزائري والثورة العظمى، واستطاع تجاوز مأساته المزدوجة والعيش فوق صهوة جوادين أي بين حضارتين مختلفتين، والتعبير عن هموم وطنية وقومية وإنسانية، ممّا قاده إلى انتهاج أسلوب أدبيّ صعب في كتابته. فمن هو هذا الكاتب يا ترى؟ وكيف استطاع أن يبرز نجمه في الساحة الفنية الجزائرية والعالمية؟ وأن يتجاوز يأسه الفني في تلك الحقبة الثورية؟

تمهيد:

تعدّ سنة 1945 الولادة الحقيقيّة للأدب المكتوب باللّغة الفرنسيّة، إذ كانت الكتابات الأولى إثنوغرافيّة موجهة إلى قارئ واحد ورأي عام واحد هو القارئ الفرنسي، والرأي العام الفرنسي بشقيّه؛ الفرنسي في فرنسا والاستيطاني في الجزائر، رغم ذلك لم ينسلخ الكتاب الجزائريّون الذين كتبوا باللّغة الفرنسيّة عن مجتمعهم ولم يتجرّدوا من هويّتهم رغم إحساسهم بشيء من التّمزّق بين ثقافتين، ثقافة فرنسيّة ذات أفق عالمي اكتسبوها من خلال دراستهم بالمدارس الفرنسيّة، وثقافة عربيّة بربريّة لا تزال تؤمن بالغبيّات التي تحكم حياة الفرد وتسجنه في صومعة ذاته، فقد عبّروا في كتاباتهم عن معاناة الإنسان الجزائري ومشاكله اليوميّة من فقر وبطالة وهجرة وظلم ورغبة في الانعتاق من الواقع المعيش.

كما كانوا يتوجّهون إلى قارئ واحد أو رأي عام واحد، هو القارئ الفرنسي والرأي العام الفرنسي بشقيّه: الفرنسي في فرنسا والاستيطاني في الجزائر؛ ليقولوا بعض الحقائق، أمّا القارئ الجزائري فلا مجال للحديث عنه في فترة واجهت واقعا تعليميّاً مزرّياً حيث " لا تتاح فيه الفرصة في التّعليم الابتدائي إلّا لحوالي 6% من مجموع الأطفال الجزائريّين الذين كانوا في سنّ الدّراسة آنذاك، أمّا التّعليم الثّانوي والجامعي فإنّ النّسبة فيه ضئيلة جدّا إلى درجة لا تستحقّ الذّكر." (1)

يضاف إلى ذلك المستوى المعيشي الضّعيف لمعظم الجزائريّين، حيث كانت القراءة مقتصرة على فئات قليلة من الشّعب من بينهم " أنصاف المتعلّمين من التّجّار وملاك الأرض، وهم من القلّة بحيث لا يشكّلون جمهوراً قارئاً، ولا رأياً عامّاً يُعتدّ به." (2)

من بين هؤلاء الكتاب نجد "مالك حدّاد" * الذي صرّح دوما بأن يقرأه الجزائريّون والعرب بلغتهم الأصليّة، وبأنّه يعيش دوما فوق صهوة جوادين أي بين حضارتين مختلفتين، ممّا قاده ضمن هذا التّناقض العنيف إلى انتهاج أسلوب أدبيّ جدّ صعب في جماليّته وأسلوبيّته، فقد كرّس رواياته للعالم الدّاخلي للبطل المثقّف وللحياة الرّوحيّة، وقد دارت كلّها حول الثّورة الجزائريّة التي نلمسها في دوامة من المشاعر والعواطف، هذا وأنّ شخصيّة الكاتب والثّورة شكّلتا نبعا غزيرا لرواياته، فقد كان يقول

دوما " أنّ الكتّاب الجزائريّين قد أدركوا أنّ التاريخ والأدب شيء واحد، وليس علينا أن نختار نحن الكتّاب الجزائريّين فلقد اخترنا وانتهى الأمر والتزمنا بالثورة والتحقتنا بها دون أيّ وجل. " (3)، فقد كان مالك حدّاد يبيّن مدي التصاق هذا الأدب بالواقع الجزائري وبالثورة الوطنيّة العظمى، وحبّ الوطن يقوم بمثابة رباط الحياة الذي يربط كافّة الحوادث بعضها ببعض.

1- مالك حدّاد وإشكاليّة هوية الأدب المكتوب باللّغة الفرنسيّة:

من أهمّ الإشكالات التي أُثيرت حول الأدب الذي كتبه الجزائريّون باللّغة الفرنسيّة في الفترة الاستعماريّة، إشكاليّة هويّة هذا الأدب وإلى أيّ جهة ينبغي أن يُنسب؟ أيعدّ أدبا فرنسيّا كما يرى بعضهم نظرا إلى اللّغة التي كُتِبَ بها، وإلى الجمهور الذي كان يتوجّه إليه؟، أم يُعدّ أدبا جزائريّا باعتبار الرّوح التي كُتِبَ بها، كما يقول آخرون؟

والحقيقة أنّ مالك حدّاد كان بنظرته الاستشراقيّة للمستقبل، كان سبّاقا لطرح مشكلة هويّة الأدب الذي كتبه الجزائريّون باللّغة الفرنسيّة أثناء الثورة التحريريّة إذ كان لا ينفي جزائريّته بحكم ما كتبه، وكذلك بحكم الرّوح التي كتب بها، والتي عكست في الغالب وبشكل تلقائيّ القيم الرّوحيّة والأخلاقيّة الأصيلة للشّعب الجزائري، وفي الوقت نفسه لم يُعده أدبا قوميّا أصيلا، كما هو الحال بالنّسبة للأدب المكتوب باللّغة العربيّة، ونظر إليه على أنّه مجرد ظرف تاريخيّ طارئ أوجده الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو لا محالة زائل مع الوقت لاسيما أنّ تباشير الاستقلال كانت تلوح في الأفق، ومن الطّبيعي أن تستعيد اللّغة العربيّة مكانتها في كلّ المجالات الثّقافيّة والفكريّة: " وسيتعلّم الجزائريّون المنحدرون من أصول فرنسيّة أنفسهم هذه اللّغة؛ ليلتحموا بمواطنيهم، وحينها سيكون للجزائر كتّابها الحقيقيّون الذين يمثّلونها بحقّ، أمّا جيلنا نحن فلن يكون حينئذ سوى جيل انتقاليّ". (4)

أمّا تسميّة الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة أو الأدب الجزائري ذو التّعبير الفرنسي، فإنّ مالك حدّاد يرفضه وقد عبّر عن هذا الرّفُض في حوار له أجرته معه جريدة "لاكسيون" التّونسيّة بتاريخ 16 جانفي 1972م (5)، وأعطى له اسما آخر قلبه رأسا على عقب؛ ليصبح "الأدب الفرنسي ذو التّعبير الجزائريّ"، وهو اسم لم يستعمله قبله أحد ويلخّص به وجهة نظر في غاية الدقّة

والإيجاز، فهو يؤكد من جهة على " الروح الجزائرية التي كتب بها، وتجلت من خلال المضمون الذي عبّر عنه، ولكنه يعدّه فرنسيًا بالنظر إلى وسيلة التعبير ألا وهي اللغة التي كتب بها. " (6)

ومن الملاحظ أنّ مالك حدّاد كان متفرّدا في الاهتمام المبكر بهذه المشكلة، كما أنّ تعبيره عنها كان صريحا إلى درجة أثارت ردود فعل معارضة لدى معظم زملائه الكتّاب الآخرون، بل ردود فعل مستنكرة وغاضبة أحيانا، وهذا ما نلمسه مثلا في تصريح صحفيّ لمحمد ديب ردّ به على مقولة مالك حدّاد الشهيرة: " اللغة الفرنسية هي منفاي " فقال: " إنّه بفضل اللغة الفرنسية قد تجنّبنا الوقوع في مخاطر الجهوية... وإنّني كجزائري لا أحسّ بأيّة مأساة في استعمالها، ومن يدّعون ذلك إنّما يخفون بذلك ضعفهم. " (7)، لكن نظرة "محمد ديب" تغيّرت مع الوقت، ليعود فيلتقي بعد أكثر من ثلاثين عاما مع "مالك حدّاد" في شعوره بالمنفى والاغتراب في اللغة الفرنسية وفي المجتمع الفرنسي.

2- المأساة المزدوجة لمالك حدّاد:

عند اندلاع الثورة المسلّحة في أوّل نوفمبر 1954، تعرّض "مالك حدّاد" لمضايقات البوليس الاستعماري بسبب الشكوك التي كانت تحوم حول انخراطه في المنظّمة المدنيّة لجهة التحرير الوطني، خاصّة وأنّ أشعاره ومختلف كتاباته كانت تعبيرا عن روح وطنيّة صادقة، فلم يجد أمامه إلّا الهجرة إلى أوروبا؛ ليسخّر أدبه في خدمة الثورة الجزائرية، ولإقناع الرّأي العام بعدالة قضية الشعب الجزائري.

فألّف ديوانه الشعري "الشّقاء في خطر" "le maleur en danger" سنة 1956، وفيه اتّضح توجّهه الثّوري ووقوفه الكامل في صفّ الثورة، وأصدر ما بين 1958 و1961 أربع روايات تباعا تمثّلت في "الانطباع الأخير" "la dernière impression" سنة 1958، "سأهبك غزالة" "je t'offrirai une gazelle" سنة 1959، و"التّلميذ والدّرس" "l'élève et la leçon" سنة 1960، و"رصيف الأزهار لم يعد يجيب" "le quai aux fleurs ne répond pas" سنة 1961، وختم أعماله الإبداعية بديوانه الشعري الثّاني "اسمع وأنا أناديك" "Ecoute et je t'appelle".

وقد تناولت هذه المؤلفات مشكلة دور المثقفين المبدعين في العهد الثوري، وقد واجهته خلالها لحظات من اليأس أو كما يسمّيه "اليأس الفني" (8)، حيث كان نموذجاً تاريخياً مهماً يبرز العلاقة المتوترة بين كاتب انفصل بقوة التاريخ عن لغته الأم فوجد نفسه بين أحضان لغة أخرى، لكنها العلاقة التي كشفت عن نوع من القلق أو ربما التذبذب في الرؤية والوضوح في الآن ذاته.

كانت اللغة الفرنسية عند "مالك حداد" هي ذلك المنفى الذي تحوّل إلى وضع درامي بلغ به مبلغاً من التألم الروحي، حيث لم يجد ما ينكي هذه الجراح إلاّ اختيار أشدّ الحلول قسوة وهي التوقف عن الكتابة باللغة الفرنسية بعد الاستقلال، وسواء أكان موقفه صائباً أم مبالغاً فيه، فإنّ صاحب رواية "التلميذ والدّرس" أراد أن يقدّم درساً للتّاريخ حول التزام الكاتب الجزائري بقضايا وطنه، مؤمناً أنّ لا استقلال إلا بفك الارتباط بفرنسا لغوياً، واستعادة علاقة الجزائر بمكوناتها الهويّاتية على رأسها اللغة العربيّة (اللغة الأم).

كما أراد "مالك حدّاد" أن يكشف عن الانسداد الذي طال أنظمة التّمثيل الثقافيّة عند الكتاب الجزائريين، وما بلغوه من عزلة قاسية، كان من أهمّ أسبابها غياب القراء بل وانعدامهم، لأنّ معظم الجزائريين كانوا أميين، وبذلك فإنّ ما يكتبه الكتاب الجزائريون كان أشبه بمونولوج داخلي، لا يصل إلى هؤلاء الذين كانوا ضحايا التّاريخ، وضحايا سياسات الاستعمار التي ضربت بثقلها في سبيل تجهيل الشّعب الجزائري، ورميه في دوامة الجهل والتّخلّف، فحينما صدع بعبارته الشهيرة "الفرنسية منفاي" و لم يكن يقصد بهذه العبارة أن يُحاكم اللغة الفرنسيّة من حيث هي لغة مثل بقية اللّغات البشرية، وإنّما كان يشير إلى الطّريق المسدود الذي وجد فيه الأدب المغربي المكتوب باللّغة الفرنسيّة بعامة والأدب الجزائري بخاصّة، ولاسيما أنّ هذا المنفى انتقل إلى قرائه. " (9)

وبهذا تكون المعضلة عند "حدّاد" مزدوجة، فهي لا تتعلّق باللّغة فحسب من حيث هي لغة، بل أيضاً بالقارئ الذي يشاركه محنة المنفى، وعجزه عن قراءة ما يُكتب، حيث "يتذكّر الحادثة التي وقعت له في إحدى مكاتب باريس حين تحدّث إلى عامل جزائري اقتنى روايته وهو لا يعرف القراءة، ومع ذلك أصرّ على أن يحملها معه كون الكاتب جزائرياً." 2 الحادثة كما ذكرها "حدّاد" تحمل الكثير

من الدلالات التي ندرك فيها بعمق مأساة القارئ الذي قد يتأمل في كتاب دون أن يقدر على فكّ شفراته أو أسرارهِ.

يقول حداد: "هؤلاء القراء الذين لا يقرؤونا، الذين لا يستطيعون قراءتنا، في حين أنهم هم الذين يعطون معنى لوجودنا ، ويمثلون السبب والغاية للثورة الجزائرية، اعتراف مهم من حداد، يُنزل الكتاب من أبراجهم العالية ، ويقلّل من تعاليهم الذي قد يبلغ شأنًا يكون للكاتب سلطة قمعية ومطلقة على القراء (أعني بهم الفلاحين)" (10)، بالنسبة له، هؤلاء الفلاحين هم القراء الحقيقيون، بل هم الذين يكتبون التاريخ ويعيشونه من الداخل ويساهمون في صناعته، غير أنّ المشكلة تكمن في أنّ الكاتب الجزائري حين يكتب عن صانعي التاريخ فهو يكتب لقرائه الحقيقيين الذين لن يقرؤوا له، وربما لم يسمعوا به، تلك هي مأساة الكتاب الجزائريين، مأساة مالك حداد وكاتب ياسين ومولود فرعون ومولود معمري. ويختزل "حداد" هذه المأساة بقوله "وفي كل مرة كنت أفكر في هذا القارئ المثالي، في هذا الفلاح المنشغل اليوم بمأمورية أخرى، في هذا الفلاح الذي لا يقرأ لي، والذي اكتب له..." (11)، لهذا ينتاب الكاتب إحساس بالعزلة، وبفضاعة اليتيم، وبالانقطاع عن واقع من المفروض أنّه يمثّل متلقيا لأفكاره وصوره وهو واجسه.

حين يغيب القارئ، أو يتيّم الكاتب به، فذلك يعني عند حداد "استحالة الكتابة"، إذ تفتقد الكتابة وظيفتها كوسيط بين أفكار الكاتب وقارئه المثالي، وتستحيل إلى صمت من نوع آخر، يتلبّس الكاتب في عزله الأبدية والمؤلمة، كما تتحول الكتابة بلغة الآخر إلى انتفاء لجوهر الكتابة ذاتها، وتغدو النصوص منافي باردة تضع الكاتب هدفا لوخز الحنين لا إلى الوطن بل إلى اللغة الأولى..

ما كتبه حداد هو كتابة المنافي الرمزية، تلك التي تستبدل الأوطان باللغات، وتغدو هذه اللغة / لغة الآخر المستعمر بمثابة عزلة وجودية، فكتابة المنفى "لا يسكنها الحنين فقط إلى طفولة المكان، بل إلى طفولة اللغة الأم أيضا، من منطلق أنّ طفولة اللغة تربة لها قداستها وسحرها العجائبي وتركيبها المنطقي الخاص، وتتمتع بحماية الذاكرة." (12)

فمالك حدّاد هنا يضعنا أمام رؤيتين يفسر بهما مأساة الكاتب الجزائري، رؤية تتعلّق بغياب القارئ ، ورؤية تتعلّق بالحنين إلى الوطن الأم، لكن رغم كلّ هذا جاء أدبه نقياً يعبر عن هموم وطنيّة وإنسانيّة، كما ظلّت السّمة التّفأؤليّة غالبية عليه ولم يكن أبداً أدبا كولونيالياً، فقد أقرّ رفقة زملائه الكتّاب "نحن نكتب بلغة فرنسيّة لا بجنسيّة فرنسيّة". (13).

هذا الأمر ساعده على عدم السّقوط في الغموض مثل بعض الكتّاب الفرنسيّين المتواجدين في الجزائر، فجاء أسلوبه بسيطاً، يفتقد إلى الزّخرفة والتّنميق، مع تفادي الإطناب في فصول رواياته، لكن بالرّغم من ذلك كانت لغته غنيّة بالتّعابير المجازيّة الموحية، وتكسب السّرد جماليّة لا يُستهان بها " إذ تعبّر بشكل متميّز عن الحالة النّفسيّة للبطل، والتي تظهر من خلال المونولوج الدّاخلي أو الكلام غير الشّخصي المباشر للأبطال، والذي عادة ما يمتزج بصوت المؤلّف بفضل تماثل المواقف في الحياة". (14) ، كما نجد في روايته الأولى " الانطباع الأخير " يبدو الهلال في سماء ليليّة للبطل المهندس "سعيد" الذي كان ينتابه قلق رهيب في بداية الحرب وكأنّه " قوس حزين انفتح في اللّاهيّة". (15) وهنا يشبّه المؤلّف نفسه بالبطل إلى درجة أنّه ينسب إليه تداعيّا (الهلال - القوس) مميّزا للأديب.

ومع هذا الهمّ المزدوج لمالك حدّاد استطاع أن يضمّن رواياته ببعض الصّور والرّموز المشتركة، كرمز "الغزالة" الذي يدلّ على الحياة والوجود، وقد شاع هذا الرّمز أكثر في رواية " سأهبك غزالة" التي بطلها كاتب جزائريّ مغترب في باريس ألف بدوره رواية بالعنوان السّابق، تتضمّن قصّة بين عاشقين تقابلا في الصّحراء المقفرة، هذه الأخيرة هي باريس وأجواؤها المستلبة التي عاش فيها رغما عنه.

وقد ورد رمز آخر في هذه الرّواية، هو رمز "الأمير" المرادف للنّبل والطّيبة، والذي نُسب لـ"موريس" صاحب الحانة، لكن في الحقيقة الأمير في نظر "حدّاد" شعبه الأصيل وبالتّحديد الفلّاحون الجزائريّون.

وكانت روايات مالك حدّاد حُبلى بأريج الذّكريات، وأوجاع الانكسارات، انطلاقاً من 8 ماي 1945 الذي كان يقول عنه " وُلدت في 8 ماي 1945، أحتاج هذا التاريخ إلى تعريف؟ (16)، حيث كان لا يرى في حياته قبل هذا اليوم - يوم الدّمع والدّم - شيئاً، والتزم منذ هذه المجازر طريق الثّورة، وصعد فيها جنباً إلى جنب مع رفاقه، كما كان مرّبع الذّكريات (قسنطينة) مسقط الرّأس مدفناً لآلامه و آماله معاً، وقد مارست ضغطها على الشّارع أو الرّصيف الباريسي الذي لم يعد يجيب، حيث يرسم فيه جوّ قسنطينة الحزيفي منذ البدء، فتضطرم مشاعر البطل " خالد بن طوبال" بمختلف الأحاسيس، منها أحداث الرّبيع الدّامي برصاص الاستعمار الفرنسي في 8 ماي 45 " في ذلك الصّباح من شهر أكتوبر كانت ثانويّة قسنطينة القديمة متأثرة إلى أقصى حدود التّأثر... وكانت البلاد تداوي بمشقة جروحها، ممّا أصابها فصل الرّبيع الدّامي، وكانت طيور اللّقالق تنظّم رحيلها، وكانت الأراضي في الجبال المحيطة بالمدينة صفراء اللون"(17).

ويقول أيضاً: " في ثانويّة المدينة تلك بدأ الحسّ الوطني ينمو متفجّراً، والطّالب "خالد" يلتحق بقسم الفلسفة، حيث جمعت الصّدفة على مقعد الدّراسة بالطّالب الأوروبي "سيمون كاج" من أجل دراسة آثار بروغسون وديكارت وإهمال ابن باديس، والشّعراء الجزائريّين الذين لا يذكر لهم اسم " (18).

إنّ الوعي المبكّر الذي شرع يشحن هذه التّجربة الرّوائية بطاقة وطنيّة تدين الاحتلال الفرنسي وتعلن الوفاء لأرض الأجداد، على عكس الكتاب الفرنسيّين الآخرين (في الجزائر) أمثال "مولود معمري" و"كاتب ياسين" الذين كان ولاءهم للغة الفرنسيّة لا لهذه الأرض العربيّة التي ألقت بضلالها على "رصيف الأزهار" نفسه في باريس، ولم يعد هذا الرّصيف يجيب!

وقد تناولت روايات مالك حدّاد مشكلة واحدة هي مشكلة دور المثقّفين المبدعين في العهد الثّوري، فضمّن فيها شخصيّات مثل المهندس المعماري في رواية "الانطباع الأخير"، الكاتب في رواية " ساهبك غزالة"، والطّبيب في رواية "التّلميذ والدّرس"، فهذه الشّخصيّات التي ترى مغزى حياتها في خلق القيم الإنسانيّة والحفاظ عليها، لكنّها تشعر بحدّة التّنافر بين وجودها وقسوة سنوات الحرب.

فالمهندس "سعيد" كان يعيش صراعا نفسيا بين نسف الجسر وبين الإبقاء عليه؛ لأنه كان بمثابة مولوده البكر، مقتل حبيبته لوسيا التي راحت ضحية أثناء نبادل إطلاق النار بين الجنود الفرنسيين والفدائيين، وأخيه "بوزيد" الذي استشهد في إحدى المعارك، والأمر نفسه بالنسبة للكاتب الذي كان يتشبّث ببصيص من الأمل "الغزالة" رمز الحياة وسط أجواء صحراء باريس المقفرة، أما الطبيب فقد عاش المعاناة نفسها لأنه اضطرّ إلى إخفاء عشيق ابنته - المناضل السري "عمر" - عن الشرطة، ومنع ابنته من الإجهاض حفاظا على حياة الطفل القادم، ذلك لأنّ الكفاح بالنسبة إليه ، هو كفاح من أجل انتصار الحياة على خراب سنوات الحرب.

هذه حال مالك حدّاد الذي كان يعي جيدا، أنّ الكاتب الجزائري هو الذي يكتب بلغة أقداره المشؤومة، هو ضحية التاريخ، وهو مؤمن بأنّ الكتابة باللغة الأم ستكون أصدق وأكثر قدرة على التعبير عن حقيقة أفكاره، وستكتشف الكتابة بهذه اللغة ذاتها من حيث هي جزء من معالم هويّة المجتمع الجزائري، لكن تظل هذه الأفكار مجرد أماني بالنسبة للكاتب، ما جعله ينتبه إلى ضرورة ممارسة نضاله بلغة المستعمر، لأنّ لا بديل له في ذلك الظرف التاريخي "فقد صارت لغة المستعمر بالنسبة للمستعمر وسيلة تحرير فعّالة. " (19)

ثمّة وجه مشرق في هذه اللغة، يقول حداد، وهو تراثها الأدبي والفكري والحضاري، وفي هذا الجانب يعترف بحميلها، ويتمثّل هذا الجميل في "احترام ضيافتها" للكاتب الجزائريين، وهنا يتذكّر كلاما قاله الكاتب الجزائري الكبير "مصطفى كاتب" يلخص الفكرة بحذق "لقد قاومنا "بيجو" ولكن لم نقاوم مولير. " (20) هذا ما يسمّيه حداد نفسه بـ"المفارقة التاريخية العجيبة"؛ فمولير بالنسبة للجزائريين ليس غريبا عنهم، وليست له أيّة علاقة بالقوّة الاستعماريّة، بل على العكس تماما، يمثل أدبه صرخة في وجه الاضطهاد الذي عانى منه شخصا في حياته، ويقدم درسا في التاريخ على أنّ أعلى أشكال الاضطهاد هو الذي يتأسس من الدّاخل ، فالعدوّ الحقيقي هو السيّد والإقطاعي الذي عرف مولير من خلال مسرحياته " كيف ينزع عنه قناعه، ذلك الإقطاعي الذي يمدّ يده للمحتلّين في الجزائر " (21)

ندرك أنّ حدّاد كان يسير بتؤدّة نحو فكرة "الازدواجيّة اللّغوية" كحلّ لا مفرّ منه، فحتّى لو أنّ اللغة العربيّة بعد الاستقلال ستعود لتتبوّأ موقعها الطّبيعي، فإنّ هذا لن يشكّل خطراً على اللّغة الفرنسيّة، لأنّ هذه الأخيرة أصبحت تشكّل جزءاً من التّراث الوطني، نفهم أنّ المستقبل سيكون — كما كان يحلم به حدّاد — هو للتّعايش بين اللّغات في الجزائر.

فاللّغة الفرنسيّة هي الجسر الذي أوصل حدّاد وكاتب ياسين ومحمّد ديب وآسيا جبار وغيرهم إلى العالميّة؟ كتب حدّاد يقول بنوع من الاعتراف "إنّني في اللّغة الفرنسيّة في منفى، غير أنّ بعض المنافي يمكن أن لا تكون غير مجدية، وإنّني أشكر من كلّ قلبي هذه اللّغة التي مكّنتني من أن أخدم، أو أحاول أن أخدم بلدي الحبيب." (22) لقد فهم بعيداً بأنّ الفرنسيّة كانت له سنداً في خدمة قضيّة بلده، وهذا ما يعكس الرّؤية المتوازنة في فهمه لوظائف اللّغة في شرطيّتها التّاريخيّة حين تغدو وسيلة لا هدفاً في ذاتها، وحينما يكتسب الكاتب وعياً بذاته وبأهدافه وبقضاياها.

الهوامش و الإحالات:

1- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي - نشأته وتطوّره وقضاياها-، ديوان المطبوعات الجامعيّة، (د،ط)، 2007، ص 155.

2- المرجع نفسه، ص ن.

* ولد مالك حدّاد بتاريخ 5 جويلية 1927 بمدينة قسنطينة، حيث نشأ وزاول تعليمه الابتدائي والثّانوي ليلتحق بالتّعليم الابتدائي كمعلّم مثل والده، وفي سنة 1954 انتقل إلى جامعة "إكس بروفانس" بالجنوب الفرنسي لدراسة الحقوق، غير أنّه تخلّى عن الدّراسة عندما اندلعت الثّورة التّحريريّة في الفاتح من نوفمبر 1954، وأصبح مناضلاً بقلمه في صفوفها، كتب في مختلف المجالات والجرائد وألّف دواوين شعريّة وروايات سبق ذكرها، توفي في 2 يونيو 1978 بالجزائر.

3- واسيني الأعرج: اتّجاهات الرّواية العربيّة في الجزائر، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (د،ط)، 1986، ص 68.

4- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 160.

5- المرجع نفسه، ص 162.

6- المرجع نفسه، ص ن.

7- المرجع نفسه، ص 163 نقلاً عن: Abdelkhabir khatibi: le roman magrébin, p 37-38.

8- واسيني الأعرج: اتّجاهات الرّواية العربيّة في الجزائر، ص 72.

9- أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللّغة و الأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، (ط1)، 2013، ص 172.

- 10- مالك حدّاد: الأصفار التي تدور في فراغ، ترجمة: أحمد منّور، دار الأملية، الجزائر، (ط1)، 2012، ص11.
- 11- المرجع نفسه ، ص 13.
- 12- أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، ص 173.
- 13- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 75.
- 14- عبد العزيز بوباكير: الأدب الجزائري في مرآة استشرافية، دار القصة، (د،ط)، 2002، ص 72.
- 15- مالك حدّاد: الانطباع الأخير، ترجمة: سعيد بوطاجين، الكتاب المسموع، وصال للإنتاج، الجزائر، 2007، القرص الأول.
- 16- بوعلام بلقاسمي: موسوعة أعلام الجزائر 1954-1962، منشورات المركز الوطني، (د،ط)، 2007، ص 161.
- 17- مالك حدّاد: رصيف الأزهار لم يعد يجيب، ترجمة: حنفي بن عيسى، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1965 ص 10.
- 18- المصدر نفسه: ص ن.
- 19- مالك حدّاد: الأصفار تدور في فراغ، ص 25.
- 20- المصدر نفسه، ص 29.
- 21- المصدر نفسه، ص ن.
- 22- المصدر نفسه، ص 34.

المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- 1- مالك حدّاد: الأصفار التي تدور في فراغ، ترجمة: أحمد منّور، دار الأملية، الجزائر، (ط1)، 2012 .
- 2- مالك حدّاد: الانطباع الأخير، ترجمة: سعيد بوطاجين، الكتاب المسموع، وصال للإنتاج، الجزائر، 2007، القرص الأول.
- 3- مالك حدّاد: رصيف الأزهار لم يعد يجيب، ترجمة: حنفي بن عيسى، المطبوعات الوطنية الجزائرية، (د،ط)، 1965.

ب- المراجع:

- 1- أحمد منّور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي — نشأته وتطوّره وقضاياها-، ديوان المطبوعات الجامعية، (د،ط)، 2007 .
- 2- أحمد يوسف: علامات فارقة في الفلسفة واللغة والأدب، منشورات الاختلاف، الجزائر، (ط1)، 2013 .
- 3- بوعلام بلقاسم: موسوعة أعلام الجزائر 1954-1962، منشورات المركز الوطني، (د،ط)، 2007 .
- 4- عبد العزيز بوباكير: الأدب في مرآة استشرافية، دار القصة، (د،ط)، 2002 .
- 5- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د،ط)، الجزائر، 1986.